

قراءة في ديوان

«حرب السنبلة»

لعصام ترشحاني

بقلم: عبد الرحمن حمادي

الشعرية باءت بالفشل، وفشلت حتى في أن تحقق حداً أدنى مما يقربها من شعر المقاومة. والأسباب كثيرة، ولعل في مقدمة هذه الأسباب أن بعض الشعراء الفلسطينيين يتخذون من القضية وسيلة على الساحة الأدبية، في حين أن المطلوب هو أن يجعلوا من الشعر وسيلة للقضية - بالإضافة إلى أسباب أخرى كثيرة يضيق المقام عن ذكرها هنا، إلا أنها ستضح معنا ونحن نقرأ في ديوان الشاعر الفلسطيني عصام ترشحاني المعنون بـ «حرب السنبلة» - والصادر عن اتحاد الكتاب العرب. ذلك أن عصام ترشحاني يدخل تجربته بنقاء كبير وبتحريض ثوري مطلق، ويفهم الشعر وسيلة لتجسيد القضية، مما يؤهله فعلاً لأن يستمر شاعراً من شعراء المقاومة الفلسطينية الحقيقيين حتى وهو يعيش تغربه في منفاه خارج الوطن المحتل.

هوامش:

صدر الديوان أواخر عام ١٩٨٤، والعودة إليه الآن لا تعني العودة إلى شعر فقد قيمته الزمنية، ذلك أن الشعر في غايته هو التغلب على الزمن والخلود. ولأن فعل المقاومة الفلسطينية هو فعل مستمر، كذا فإن الشعر المقاوم هو فعل مستمر يأخذ قيمته حين كتابته وحين قراءته في أي وقت كان. وضمن هذه الهوامش نذكر أن الشاعر عصام ترشحاني يمثل واجهة بارزة في الشعر الفلسطيني عبر تجربته الكبيرة والتي تمثلت في عدة دواوين منها:

عصام ترشحاني يرتل للشظايا فيسبقه التين والبرتقال والغضب: يقول سانت بوف في تعريفه الشهير للشعر: إن الشاعر عندما يملك مقدرة الكشف فذاك يعني أنه قد ملك قوة التحريض، والشاعر لا يمكن أن يكون شاعراً مبدعاً إلا عندما يملك قوة التحريض.

هذه المقولة الشهيرة لسانت بوف تقفز إلى ذاكرتي دائماً كلما وجدتني أقرأ شعراً لشاعر فلسطيني، حتى لتكاد كلمة - التحريض - التي أكد عليها بوف تصبح مقياساً أضعه في قراءتي للشعر الفلسطيني. ومع ما في هذا المقياس من مبالغة، فإنني في الواقع لا أستطيع أن أتصور الشعر الفلسطيني يمارس وجوده بعيداً عن التحريض، فكل شيء في الثورة الفلسطينية ينطلق من التحريض، بل إن التحريض الكامن في الشعر الفلسطيني أهله لأن يكون شعر مقاومة في التصنيفات الأدبية العالمية، ومن هنا نرى أن الشعراء الفلسطينيين، داخل وخارج الأرض المحتلة، يحاولون الأنضواء تحت تسمية شعراء مقاومة، فأين تقف محاولاتهم؟

إننا في الواقع إذا ما استثنينا شعراء الوطن المحتل، وبعض الشعراء الفلسطينيين خارج الوطن المحتل: محمود درويش، معين بسيسو، عز الدين المناصرة، نجد أن معظم المحاولات

محذراً وطالباً زيادة الانتماء واستمراريته :

لنا أن نقاوم

جمر النعاس

وأن نغسل العتمة الآتية . .

وهؤلاء الذين يمارسون الانتماء قولاً وفعلاً هم الراية التي ستخفق ذات يوم على الأرض السليبية، هم البدايات والنهايات، وهم الطلقة والصيحة، وفيهم تتجسد القضية وآفاق العودة :

لنا أن نلاقي الشمس

أن نعود إلى عصمة الفجر

وأن نفرس الراية العاليه

ولأن الانتماء هو جوهر الفعل الثوري عنده، فإن الفعل الثوري هو ممارسة حمل البندقية حتى النهاية وهو تحطيم كل الحلول الاستسلامية .

لقد أدرك الشاعر، كما أدرك جميع المنتمين، أن المراثي والبكاء لم تعد تجدي، فإن البكاء لن يعيد الأراضي المحتلة والبيوت المنهوبة، وإنما الطلقة الراضة وحدها هي التي تشرق بالأمل . ولنقرأ هذه الكلمات التي تجسد رؤية الشاعر للفعل الثوري :

هذي منازلنا وراء حدودنا

قمر يطوف على اليتامى

والملاجيء والسجون

هذي ضحايانا . . .

تلعن ملء دهشتها القصيه

أن أعمدة الخيام

تمر من شظف السنان

ومن عيون المجذليه

بل إن وعي الشاعر يبلغ حدّاً عالياً فيرفض أية مساومة على القضية، ويندّد بأيّ حلّ استسلامي ويعتبر أن الاقتراب من المزاولات العلنية والخفية خيانة كبيرة وكبيرة جداً. والشعب العربي الفلسطيني لن يسامح المزاولين والمستسلمين ولا بد أن يجيء الحساب .

البندقية في يد الزيتون

تذبح من يخون

إن الطريق الذي يطالب به الشاعر هو طريق صعب، يكلف

«قراءة في دفتر الرعد»، «الغزاة تعود إلى البحر»، «أيتها الحبيبة خذيه عاشقاً»، «منارات لأحزان العشب»، «البحر يقطف وردتين»، «دمي لن يغني لكم»، «وكان ذاهباً في العذوبة»، «يوميات الورد المحاصرة». وديوانه «حرب السنبله» يضم عشر قصائد هي: سلاماً لأمي - صباحان للدخان - صباح للأرجوان - آخر أسفار الخروج - خريف القرنفل - تقاسيم بدائية - سورة الانفجار - وردة الهجرة - البندقية وحدها - الأصدقاء - حرب السنبله . ويهدي الديوان إلى أبيه الرجل الذي حمل هويته وراح يزرعها شجراً وأحلاماً وبنادق .

مقاوماً :

لم تعد قبلة الموت تكفي

ولا نارها الراجفه

سيخلق هذا الجليلي

من لحمه قبضة الله،

ودبابه الدم

يخلق هذا الجليلي

أزهاره القاذفه

بهذا النفس الثوري المقاوم تنسحب كلمات عصام ترشحاني في ديوانه، وهو نفس يتلفع بكل ما في الثورة الفلسطينية من نبض رافض ومعاناة جامحة، وهذه أولى الجوانب التي تهىء الشعر الفلسطيني الحقيقي ليمارس دوره التحريضي، وعند عصام خصوصاً تتسع التجربة بمرارتها، فهو قد عايش النكبة من بدايتها حاملاً نرفه الكبير شوقاً للأرض التي غادرها صغيراً وحملها حلاً متجدداً في غربته :

ها هي الأرض تكتم في صدره

روحها النازفه

ها هي الأرض في جسمه

مثل حلم يموت

وفي كل فصل

يقوم من الموت يسترجع العاصفه .

والغربة عنده في قالب المعاناة تعني الفعل الثوري المقاوم، الفعل الذي ينتمي للوطن المحتل بكل ما يعنيه هذا الإلتواء من حروب ومعارك وعمليات فدائية، وهو يدرك تماماً خطورة هذا الإلتواء، وكيف يسعى البعض لالغائه، لذلك نراه يطلق الصيحة

الضحايا ويكلف الشهداء ولكنه في النهاية طريق الثوريين .

شمس . . لقتلانا

شمس لجرحانا

شمس . . . تقوم إلى البيارق

لتوزع الغضب المضيء

من الملاجىء للموانىء

إنها جوانب من ثورية الشاعر وانتمائه .

متغرباً :

الكلّ الثوريّ لدى عصام ترشحاني لا يمكن اكتشافه كاملاً إلا عبر قراءة الجوانب الأخرى في الديوان وفي مقدمتها إحساس الغربة العارم الذي يفوح من كلماته - وهذا طبيعي ما دام انتماء الشاعر الثوري قد بدأ من المنافي بعد هجرته القسرية صغيراً عن فلسطين وحيث كل من ينتمي إلى هذه الهجرة يحمل خوفه وغربته، ويبدأ بأمه، يعانيتها كتلة من الحنين والحكايات عن الأرض والبيارات والحقول :

أراك تفرين من غابة لذويها

وحين يحاول في ذبحة الماء

أن يرتدي الحرب

حين دم الخائفين

يحاول أن لا يضيع

هذا هو إحساس الخوف، ومن سلخوا أرضه وبيته يبقى موزعاً في موانىء القلق والتناقضات والحنين، بل لنقرأ هذا الحنين العارم الذي يؤكد الشاعر في أكثر من موضع من ديوانه، حنين للسنايل وأيام الحصاد، وللبراري والمناجل، وهي صور ما زالت محفورة في ذاكرة الشاعر عندما كان طفلاً في فلسطين وقبل أن يضطر للهجرة عنها مع المهاجرين :

كانت ليالي الحصاد تُذكّرني

بامتلاء المحبين

وتُذكّرني حين تدنو السنايل

في لهفتين

إلى منجل الفقراء

مفهوم الغربة هنا ليس انطواء وعزلة واستسلاماً، بل هو مفهوم متجذر كعبء يحمله الشاعر يرى من الضروري الخلاص منه،

فبقدر ما يتمعن في غربته بقدر ما يستقي من هذه الغربة لهيباً رافضاً لها، فالأرض المسلوقة عنده تنادي أبناءها للعودة، والتراب المقيد بأصفاد الاحتلال يستصرخ أبناءه للعودة، والعودة لن تكون بغير الحرب والشهداء :

هي الأرض

دقت منازلكم

واحدًا واحدًا

وارتدى وجهها غيمة الانفجار

وإذا كان الشاعر هو اكتشاف الآخرين، فعصام يكتشف الغربة بمفهومها التحريضي في نفوس الآخرين أيضاً - حيث الجميع يحملون مرارة الوداع وآلام الغربة، وحنين الأرض :

ويدخل في الكتابة

واسعاً ومحاصراً

هذا هو الميناء

في كفيه يرتبك الوداع

بلا بلاد

كان يدخل في ثياب البحر

يدخل في الحقيقية

واسعاً ومحاصراً . .

متفائلاً :

في الواقع الذي يكتب فيه عصام ترشحاني مساحات كثيرة للتشاؤم، فالمنافي والغربة والقلق والانكسارات . . كلها أشياء تنسحب على عالم الشعر الفلسطيني عموماً، وعصام الذي رأينا مدى انتمائه للأرض ولل قضية يعكس كثيراً من المرارة في أشعاره، بيد أن التساؤل هو: هل نقبل من الشاعر أن ينكفئ مكتفياً بعكس السلبات والعذابات؟ وما الذي يبقى للشعر الثوري المقاوم إن هو اكتفى بهذا القدر من تصوير النكبة؟

إن المطلوب في الشعر الثوري هو أن يفتح دائماً نوافذ للشمس، بعبارة أخرى أن يعطي فسحات كبيرة للتفاؤل، بل إن التفاؤل هو العلامة البارزة للتجارب الشعرية الثورية المعروفة عبر التاريخ العالمي، ألم يطلب ناظم حكمت من زوجته وهو في مأساة سجنه أن تضحك وأن تفتح النوافذ لضوء الشمس؟ أو

لم يغنَّ بايرون للحرية القادمة وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في منفاه؟

إن عصام ترشحاني رغم كل مساحات السواد والحزن يعرف كيف يستشف الأمل ويعكسه ويرى أن العودة لا بد آتية، والأعياد لا بد أن تعم، بيد أن تحقيقها يحتاج للتضحيات:

لا شيء إلا دم الشهداء
يهيئ للأرض
أعياد ميلادها المقبله

والتفاؤل لديه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفعل التحريضي، فلا شيء مستحيل ما دامت الإرادة النضالية والقتالية هي المقياس وما على هؤلاء المنفيين إلا أن يحملوا غضبهم ويتجهوا إلى حيث تبدأ العودة . . إلى فلسطين:

رتلوا سورة الانفجار
رتلوا . . للحجارة

إن دم الأرض يركض فيها
رتلوا للشظايا
سيسبقنا التين

والزيت والبرتقال

لاحظوا مدى ارتباط التفاؤل بالفعل التحريضي، ولم لا يتفاءل الشاعر وهو يرى أن شعبه رغم السنوات وتقادمها يزداد التصاقاً بالقضية، والجيل الذي ولد في المنفى ولد وهو يحمل فلسطين معه:

إن طفلاً

له هيئة الأرض

والرعد والشهداء

يداهم دبابة الغاصبين

ولذلك نرى الشاعر يحمل ثقة مطلقة بشعبه العربي المناضل، ويؤمن أن المستقبل بكل اشراقاته هو ملك لهذا الشعب.

إن شعباً

تعمد جرحاً

يحب ويزهر بالمعجزات

ومن ضلعه

يخرج الضوء بالبندقية

لن يندحر

في الشكل

في البحث عن الأزمة الحاصلة بين الشعر الحديث والقارئ، ثمة أسباب، منها اتهام الشاعر بالعجز عن استيعاب التراث القديم للقصيدة العربية، وذلك عبر الإغراق في الشكلائية الثرية، وأيضاً التأثير الذي يصل إلى حد التقليد بالشعر الأجنبي المترجم والتغريب والإبهام والتعقيد الذي يوغل الشاعر فيها، ومن هنا بات من الضروري أن نطالب بالشاعر الحديث الذي يبدأ من التراث ليصل إلى الحداثة، ويضع القارئ ووعيه والتأثير به في مقدمة همومه، وهو ما نجده تماماً عند عصام ترشحاني إذ نبدأ بالانجذاب للموسيقا التي تنبعث من جميع قصائده، أعني الموسيقى الداخلية، وهذا سببه أن الشاعر يعي تماماً أهمية توظيف التراث القديم للقصيدة العربية، من ناحية الأوزان من أجل الوصول إلى موسيقى تؤثر في القارئ، وهذا مثال:

طلقة طلقتان

هل هما توأمان

أم هما كوكب واحد

فاض فيه الزمان

كوكب حارق مرّ بي

مثل رمح الدخان . .

الشاعر هنا كما نرى يستخدم فاعلن كوزن للقصيدة متفتناً ببراعة في عملية توزيعها على قالب الشكل الحدائثي الجديد، وكذا في بقية القصائد، أضف أنه يرتكز ارتكازاً كبيراً على الصورة الشعرية المربكة المفهومة، وخاصة الطبيعة ومفرداتها مثل: هل تفتحون الحدود على الشمس - هل تكسرون المرايا القديمة - هل تطلقون يد الشعب وبعد:

إنها عجالة سريعة لقراءة في أحد أهم دواوين الشعر الفلسطيني التي ظهرت في السنوات الأخيرة. وهو ديوان يستحق أكثر من وقفة لأنه فعلاً يشكل إضافة متقدمة لشعر المقاومة الفلسطينية خارج الأرض المحتلة، ديوان يمتلىء بالوطن والأهل والحنين والأمل.